تصنيف المعرفة في العصر العثماني من واقع رسالة ترتيب العلوم لساجقلي زاده: دراسة وتحليل

محمد إبراهيم حسن محمد

مدرس، قسم المكتبات والمعلومات، كلية الآداب، جامعة المنيا، مصر

الملخص

تتناول الدراسة بالتحليل أحد الأعمال التراثية النادرة وهي «رسالة ترتيب العلوم» لمؤلفها ساجقلي زاده، بهدف الوقوف على ما وصل إليه المسلمون - خلال العصر العثماني - من نضج فكري وفلسفي؛ يبلور أفكارهم نحو ما يكتنف المعرفة البشرية من علاقات وروابط تنتظم جزئياتها المختلفة. وتنقسم الدراسة إلى ثلاثة أقسام: التعريف برسالة ترتيب العلوم ومؤلفها، ولمحات التصنيف في رسالة ترتيب العلوم، ونتائج التحليل.

موضوع الدراسة

على الرغم من أهمية الدور العربي الإسلامي في مجال التصنيف فإنه لم يوف حقه من البحث والتعريف من مؤرخي علم التصنيف الغربيين، فنجد الكتابات الغربية تغفل دور العرب في العصور الوسطى، وتقفز بدراسة التصنيف من الحضارة اليونانية إلى بدايات الحضارة الغربية. وعلى المستوى العربي نجد عدة دراسات عربية تفردت بالبحث في التصنيف، بعضها يتناول التصانيف العربية بشكل عام، وبعضها اقتصر على تصنيف فيلسوف بعينه.

ومن بين هذه الدراسات لا نكاد نعثر على دراسة تناولت التصنيف عند محمد بن أبي بكر المرعشي الشهير بـ (ساجقلي زاده)، وهذا هو موضوع الدراسة الحالية، حيث تعمد الدراسة إلى النفاذ بعمقٍ إلى أسس ترتيب العلوم عند ذلك العالم المسلم، والتعرف عن كثب على القواعد والمفاهيم التصنيفية التي انتهجها في عرض العلوم على الخريطة التصنيفية للمعرفة، وذلك من واقع رسالته «**ترتيب العلوم**».

أهمية الدراسة

تركز معظم الدراسات التي تتناول موضوع التصنيف عند العرب والمسلمين على تتبع إسهامات العلماء والفلاسفة العرب والمسلمين في القرون الأولى للحضارة الإسلامية، محاولة إثبات أسبقية الحضارة الإسلامية في الوصول إلى المفاهيم والأسس والنظريات الخاصة بعلم التصنيف؛ تلك التي يقوم عليها ذلك العلم عند الغرب في العصر الحديث، ونادراً ما نصادف دراسات تسعى إلى اقتفاء أثر إسهامات العرب والمسلمين في علم التصنيف في القرون المتأخرة (العصر العثماني)، التي شهدت إجمالاً لما توصل إليه الفكر العربي المسلم لا سيَّما في القرن الثاني عشر الهجري.

وعلى ضوء ما تقدم تبرز أهمية الدراسة فيما يأتي:

1 - تعرض الدراسة لأحد الأعمال التراثية النادرة (**رسالة ترتيب العلوم**) التي توضح ما وصل إليه المسلمون من نضج فكري وفلسفي؛ يبلور أفكارهم نحو ما يكتنف المعرفة البشرية من علاقات وروابط تنتظم جزئياتها المختلفة.

2 - تميط الدراسة اللثام عن أحد علماء المسلمين (ساجقلي زاده)، وأفكاره، ومناهجه وأساليبه المعرفية، والإدراكية، والتعليمية؛ إذ لم تتناول الدراسات السابقة ذلك العالم الجليل.

3 - تقدم الدراسة مخططاً عاماً ونسقاً شاملاً لرؤية ساجقلي زاده في تصنيف المعرفة البشرية التي انتهى إليها العرب والمسلمون في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي.

4 - تكشف الدراسة عن ثلاث خطط تصنيفية خاصة - انطوى عليها مخطوط ترتيب العلوم - وضعها ساجقلي زاده لطلاب العلم، ودوافع صياغة كل منها، والأسس المنطقية التي استندت إليها كل خطة.

5 - توضح الدراسة قواعد تنظيم آداب البحث عند المسلمين، فيما يمكن أن نعدَّه البدايات الأولى لما نطلق عليه اليوم «مناهج البحث العلمي».

هدف الدراسة

تهدف الدراسة إلى إجراء بحث شامل ووافٍ لتصنيف العلوم عند ساجقلي زاده من واقع رسالة ترتيب العلوم بوصفها نموذجاً للتصانيف العربية الإسلامية للعلوم في العصر العثماني، وبعبارة أخرى تسعى الدراسة إلى تحديد مكانة تصنيف ساجقلي زاده من تصانيف العلوم العربية الإسلامية، وللوصول إلى ذلك تحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1 - من ساجقلي زاده، وما ظروف تعليمه، وما مؤلفاته، وفي أي الموضوعات تخصص؟

2 - ما خطة (خطط) تصنيف المعرفة عند ساجقلي زاده، وما أهم الملاحظات عليها؟

4 - هل كان للبيئة الفكرية والثقافية أثر على رؤية ساجقلي زاده في تصنيف العلوم؟

5 - ما التصنيفات التي تأثر بها ساجقلي زاده، وإلى أي حد تأثر بها؟

6 - ما مدى التناسق والتماسك في ترتيب ساجقلي زاده للعلوم؟

منهج الدراسة

اعتمدت الدراسة على منهج دراسة الحالة التاريخية (المنهج النظري أو الوثائقي) بأسلوبيه: التسجيل الذي يقتضي تناول الأحداث والوقائع بالسرد والوصف، كما تم التوصل إليها من الوثائق اعتماداً على استخدام الأدلة العقلية.

وتجدر الإشارة إلى قيام الباحث بتحليل مضمون رسالة ترتيب العلوم لساجقلي زاده، وتحقيق أجزاء منها للإفادة من المعلومات الأساسية عن الموضوع على اعتبار أنها المصدر الرئيس لاستقاء المعلومات في الدراسة، إلى جانب استشارة بعض الأعمال المرجعية والتراثية.

إجراءات الدراسة

مرَّت الدراسة بمراحل متعددة على النحو الآتي:

1 - التثبت من شخص واضع التصنيف ومؤلف رسالة ترتيب العلوم؛ ساجقلي زاده.

2 - توثيق نسبة الرسالة التي هي مصدر استقاء المعلومات إلى المؤلف، مع ضبط عنوان الرسالة، واسم المؤلف.

3 - تحقيق أجزاء من النص وهي الأجزاء الصعبة من حيث المبنى أو المعنى.

4 - تحليل مضمون ما انطوت عليه الرسالة من معلومات.

5 - وصف النتائج التي توصلت إليها الدراسة من خلال تحليل المضمون (المحتوى).

الدراسات السابقة والمثلية

حظي موضوع تصنيف المعرفة عند العرب والمسلمين باهتمام بالغ من جانب الباحثين العرب؛ إذ تناوله كثير من الدراسات العامة والمتخصصة. إلا أن غالبية هذه الدراسات لا تخرج في مجملها عن مجرد عرض لتلك التصنيفات، أو حصرها، أو التعريف بها، ولم ينفذ منها بعمق إلى أسس ترتيب العلوم والقواعد التي اتبعت في إعدادها سوى دراسات قليلة.

ويمكن تقسيم الدراسات التي اهتمت بتناول تصنيف العلوم عند العرب والمسلمين إلى فئات ثلاث هي:

1 - دراسات عامة تتناول تصنيف العلوم عند العرب والمسلمين بشكل عام.

2 - دراسات فردية تتناول جهود أحد العلماء أو الفلاسفة العرب والمسلمين في مجال التصنيف، وهذه هي الفئة التي تندرج تحتها الدراسة الحالية.

3 - دراسات مقارنة تتناول جهود اثنين أو أكثر من العلماء أو الفلاسفة المسلمين، ثم توضح جوانب التوافق والاختلاف بينها.

ومهما يكن من أمر، فلا يرتبط بموضوع الدراسة الحالية (تصنيف المعرفة عند ساجقلي زاده) سوى أطروحة الدكتوراه التي أعدتها الباحثة ناهد محمد بسيوني سالم[1] بعنوان: «تصن**يف المعرفة عند المسلمين فيما بين القرنين الثاني والثاني عشر الهجريين: دراسة تحليلة لنظمه ومدى تأثيرها في نظم التصنيف الحديثة**» وأجيزت من جامعة الإسكندرية عام 1998.

ولعل ارتباط هذه الرسالة بموضوع الدراسة إنما يرجع إلى تناولها التصانيف العربية الإسلامية في العصر العثماني في فصلها السادس، بيد أنها اقتصرت في تناولها على ثلاثة نماذج هي: تصنيف طاشكبري زاده، وتصنيف الشرواني، وتصنيف التهانوي، ولم تتطرق من قريب أو بعيد إلى تصنيف ساجقلي زاده للمعرفة.

أولاً: التعريف برسالة ترتيب العلوم ومؤلفها

1 - التعريف بساجقلي زاده

هو محمد أبو بكر المرعشي المعروف بساجقلي زاده[2] الصوفي الحنفي المدرس والإمام في جامع بلدة، أخذ الطريقة عن الشيخ عبدالغني النابلسي، وهو عالم مشارك في أنواع من العلوم. توفي سنة 1150هـ خمسين ومئة وألف (1737م).

ومن مؤلفاته[5] [4] [3]:

- ترتيب العلوم[6].
- تسهيل الفرائض.
- تقرير القوانين المتداولة من علم المناظرة[7].
- تقرير القوانين المتداولة في آداب البحث[8].
- تهذيب القراء.
- جامع الكنوز.
- جهد المُقل.
- حاشية على الخيالي.
- حاشية على شرح رسالة الآداب لطاش كبرى زاده.
- حاشية على شرح السعد لعقائد النسفية.
- رسالة التنزيهات في تأييد رسالة الآيات المتشابهات، وجواباً لسنبلزاده عن رده عليه.
- رسالة السرور والفرج (في أبوي النبي صلى الله عليه وسلم)[9].
- رسالة في الضاد المعجمة.
- رسالة المنوي[10].
- رسالة الوليدية في المناظرة[11].
- سجة القدير في مدح ملك القدير.
- سلسبيل المعاني.
- العرائس في المنطق.
- عصمة الأذهان.
- عندليب المناظرة.
- عين الحياة في بيان المناسبات في سورة الفاتحة.

- غاية البرهان في بيان أعظم آية القرآن (في تفسير آية الكرسي).
- نهر النجاة في تفضيل عين الحياة.

وتتناول هذه المؤلفات موضوعات متنوعة، فمنها ما هو في علوم القرآن والسنة مثل: علم التفسير، وعلم أصول الحديث، والسيرة النبوية، ومنها ما هو في علوم اللغة العربية مثل: علم اللغة، وعلم المحاضرات. إلا أن معظم هذه المؤلفات تقع في نطاق العلوم العقلية لا سيَّما المنطق، وعلم المناظرة، وآداب البحث، وعلم الكلام.

ب - وصف رسالة ترتيب العلوم

ناسخ المخطوط هو: عبداللطيف الشامي الذي انتهى من كتابته لتحسين التوقادي في 27 رمضان سنة 1307هـ = 16 مايو 1890م[12]، النسخة جيدة ومجلدة مكتوبة بقلم معتاد في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي بمداد أسود على ورق أبيض خفيف يميل إلى الصفرة، ويبلغ عدد أوراقه 41 ورقة، 82 صفحة؛ إذ الكتابة على وجهي الورقة، وأبعاد المخطوط الخارجية هي: 27 سم × 19 سم، والأبعاد الداخلية هي: 20 سم × 14 سم، عدد الأسطر في الصفحة 19 سطراً؛ يتضمن حواشي كثيرة.

تستهل الرسالة بالحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً، وبعد فيقول البائس الفقير محمد المرعشي المدعو بساجقلي زاده أكرمه الله سبحانه بالفوز والسعادة: اعلموا معاشر الطلبة أصلح الله أموركم، ومد أعماركم، وأحيا بكم رسوم[13] الدين، وهدى بكم قوماً آخرين، أنه كان يوجد في كل قرن من القرون الماضية من هذه الأمة طائفة من العلماء المؤلفين والأعلام المحققين، وخلا الآن من أمثالهم الجوانب، وخلف[14] الأسود في غاباتها الأرانب...

وتنتهي الرسالة بقوله: ....تمت الرسالة بعون الله تعالى وحسن توفيقه، اللهم بك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين[15].

ج - المحتوى الموضوعي لرسالة ترتيب العلوم

تتضمن الرسالة مقدمة ومقصدين وتذييلاً وخاتمة. أما المقدمة ففيها ثلاثة فصول: فصل في تعداد الفنون النافعة[16] نفعاً يُعتد به، منها بعض العلوم العربية وهي: علم اللغة والتصريف والاشتقاق، والخط العربي، والنحو، والعروض والقافية، والبلاغة والمحاضرات. ومنها بعض العلوم العقلية وهي: علم الميزان والمناظرة، ومبادئ علم الكلام، والرياضيات (الحساب والهندسة والهيئة). ومنها العلوم المأخوذة من الكتاب والسنة وهي: علم العقائد، وعلم الأخلاق، وعلم الوقف والابتداء، وعلم مرسوم المصحف، وعلم القراءات، وعلم التفسير، وعلم المعاني، وعلم أصول الحديث. ومنها علم التشريح، وعلم الطب، وعلم الفراسة، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم اللغة الفارسية وكيفية تراكيبها. كما يضم هذا الفصل أيضاً تعريفاً بالفنون الضارة وهي: علوم الفلسفة، والسحر، وعلم أحكام النجوم، وعلم الموسيقا، وعلم الحرف، وعلم الرمل والأشعار. أما الفصل الثاني فمداره حول تقسيم العلم إلى شرعي وغير شرعي، وبيان أن العلم الشرعي يحتمل ثلاثة معان. وأما الفصل الثالث فقد خصصه المؤلف لتقسيم أحكام الاشتغال بالفنون، ويوضح أن أهم العلوم ما هو فرض عين على المكلف قبل كل شيء وهو علم التوحيد والصفات، ثم ما فرض عليه عيناً بعد ذلك في كل وقت كمعرفة فرائض الأخلاق أو محرماتها، ثم ما فرض عليه عيناً في بعض الأوقات كعلم الصلاة، الصوم عند بلوغ المرء إلى وقت افتراضها، ثم ما فرض عليه على الكفاية عند عدم وجود القائم به، ثم مستحبات العلوم. ومن مستحبات العلوم تحصيل فروض الكفاية عند وجود القائم به.

أما المقصد الأول ففيه فصلان: الفصل الأول في الكلام المتعلق بكل فن (علم) بشكل مفصل، ويشغل هذا الفصل الجزء الأكبر[17] من الرسالة؛ إذ يعد بمثابة دائرة معارف للعلوم، سواء ما كان منها نافعاً شرعياً أم ما كان منها ضاراً. والفصل الثاني في بيان التدبيرات الردية حيث يوضح سلوكيات من لم يرزقه الله تعالى حدة الذهن من الطلبة، وما قد يصيب بعض الأساتذة من آفات الافتخار والرياء بكثرة أهل مجالس درسهم، والإرشاد إلى آداب البحث واقتراح بعض الحلول لهذه المشكلات.

ويضم المقصد الثاني فصلين: الفصل الأول في بيان ترتيب الفنون لمن أراد تحصيلها، ويوضح أولوية تلقي العلوم حيث يلقن المبتدئ أولاً الإيمان، ثم يُلقن العلوم الأخرى حسب الترتيب إلى أن يصل إلى تعلم التفسير. أما الفصل الثاني ففي بيان مراتب العلوم؛ حيث يرى المؤلف أن لكل علم من العلوم ثلاث مراتب: مرتبة الاقتصار، ومرتبة الاقتصاد، ومرتبة الاستقصاء، وقد اقتصر المؤلف على بيان هذه المراتب بالنسبة لكل علم من العلوم الشرعية دون غيرها، مشيراً إلى إمكانية تحديد ذلك في غيرها من العلوم باستخدام القياس.

وقد جاء التذييل في مدح القرآن لتهييج نشاط الطالبين - على حد تعبير المؤلف - ليرغبوا فيه وفي العلوم المتعلقة به، مستشهداً في ذلك بعدد من آيات الذكر الحكيم التي تعلي من شأن القرآن الكريم، واستعراض الأسماء التي سماه الله تعالى به، وعرض مدائحه الواقعة في الحديث.

وتنتهي الرسالة بخاتمة عن الفلسفة، وعلى عكس ما ذكره المؤلف من مدح للقرآن الكريم وعلومه، انطوت الخاتمة على ذم للفلسفة والفلاسفة، وتحذير المسلمين من الاشتغال بها، والتبرء ممن يوالون تلك الفئة الضالة.

ثانياً: لمحات التصنيف في رسالة ترتيب العلوم

أ - تصنيف ساجقلي زاده

يُعَرَّف التصنيف من وجهة النظر الفلسفية بأنه: الترتيب المنتظم لفئات الأقسام، حيث يكون القسم عبارة عن أي مجموعة من الكيانات التي تشترك في الخواص نفسها Chracteristics، والخاصية هي صفة Attribute يمكن بوساطتها فصل المفاهيم أو التصورات Concepts بعضها عن بعض إلى مجموعات، أو يمكن بها مد التقسيم إلى تفريعات موضوعية، وبناء عليه فإن الغرض من التصنيف هو تجميع (أو تشكيل أقسام) الكيانات التي تشترك في خواص معينة، وفصل الكيانات التي لا تشترك في تلك الخواص، وببساطة يكون التصنيف عبارة عن تجميع الأشياء المتشابهة وفصل الأشياء غير المتشابهة[18].

المعرفة العلمية طبقاً لأرسطو تتألف من ترتيب الأجزاء تحت مفاهيم الأقسام العامة ودمج تلك المفاهيم في نظام، وأن هدف العلم هو التحديد الذي يفسر طبيعة موضوع من الموضوعات عن طريق خواصه الجوهرية Essential Properties وخواصه الاختلافية Differentiating Properties التي تميزه عن المجموعات الأخرى، إذاً فالهدف النهائي للعلم هو: التصنيف الكامل لمواد المعرفة في مجموعات تقسيمية مُظهراً جميع التشابهات والاختلافات في خواص الأقسام المتعددة[19]. ومن هذا المنطلق حرص عدد غير قليل من العلماء العرب والمسلمين على تسجيل رؤيتهم للمعرفة البشرية وما تتداعى إليه من أقسام في مؤلفاتهم التي قامت بها وعليها دعامات الحضارة الإسلامية.

هذا وتنطوي رسالة ترتيب العلوم[20] لساجقلي زاده من وجهة نظر الباحث على أربعة تصانيف للعلوم. أما التصنيف الأول فهو: يعكس الرؤية العامة والشاملة للفنون (العلوم). ويختص التصنيف الثاني: ببيان تقسيمات الفنون حسب أحكام الاشتغال بها. ويُعنى التصنيف الثالث: بترتيب الفنون لمن أراد تحصيلها حسب أولوية اكتسابها وتلقيها. وفي التصنيف الرابع: توضيح لمراتب العلوم.

ب - النسق العام لتصنيف ساجقلي زاده

يتضح من تحليل مضمون مقدمة رسالة ترتيب العلوم لساجقلي زاده أن الفنون (العلوم) تنقسم إلى فنون (علوم) نافعة نفعاً يعتد به، وفنون (علوم) ضارة. انظر شكل (1)، وعن العلوم النافعة يقول ساجقلي زاده: «اعلم أن لكل علم من المذكورات فائدة، ولتلك الفائدة فائدة أخرى إلى أن ننتهي إلى الفوز بسعادة الدارين كما قيل في شرح المواقف أن غاية فوائد الكلام هي الفوز بسعادة الدارين؛ فهو منتهى الأغراض وغاية الغايات. أقول لكن العلوم الشرعية أقرب إلى الفوز من العلوم الآلية، واعلم أن كل منفعة تترتب على فعل تسمى فائدة من حيث ترتبها عليه، وغاية من حيث إنها على ظرف الفعل، ونهاية وغرضاً من حيث إن الفاعل فعل ذلك الفعل لأجله حصوله. . .»[21]، وأما «المذكورات بضر كالفلسفة والسحر وعلم أحكام النجوم لا ينفع علمها نفعاً يُعتد به ولا يضر جهلها»[22].

ويذكر ساجقلي زاده في الفصل الثالث من مقدمة رسالة ترتيب العلوم أن النافع من العلوم ينقسم بدوره إلى شرعي وغير شرعي حيث يقول: «فصلٌ في تقسيم الفعل إلى شرعي وغير شرعي، ويُطلق على العلم الشرعي العلم اللدني لاتحاد الدين والشريعة. . .»[23]، وأما العلوم الشرعية «ما يُستفاد من الأنبياء صلوات الله عليهم، ولا يرشد إليه العقل مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع من غير الأنبياء مثل اللغة، وعلى ذلك فإن ما نطق به النبي إن كان شيئاً من هذه الثلاثة[24] لا يعد علماً شرعياً، وبالجملة فالعلم الشرعي على ما ذكر ما لا يعلم إلا من الشارع. . .»[25].

وتشتمل العلوم الشرعية عند ساجقلي زاده على علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلوم مأخوذة من الكتاب والسنة، والعلم اللدني، وتفصيلها على النحو الآتي[26]:

1 - علوم القرآن

1-1- علم التجويد (علم الأداء): هو علم يبحث فيه عن مخارج الحروف وصفاتها، وقد يُعرف بأنه ملكة يُقتدر بها على إعطاء الحروف حقوقها.

1-2- علم الوقف والابتداء: هو علم يُعرف به مواضع الوقف والابتداء من القرآن، وقد عرفه السيوطي بأنه: «فن جليل يُعرف به كيفية أداء القرآن».

1-3- علم مرسوم المصحف: هو علم يُعرف به كيفية رسم المصاحف الأئمة أي خطها، وهي المصاحف التي كتبها الصحابة بأمر عثمان رضي الله عنه في زمن خلافته.

1-4- علم القراءات: هو علم مذاهب الأئمة في قراءات نظم القرآن، والقراءات تنقسم إلى مشهورة وشاذة، والمشهورة هي الصحيحة المعتبرة، والشاذة هي الضعيفة.

1-5- علم التفسير: هو علم بيان معاني القرآن، وموضوعه نظم القرآن، والغرض منه الاطلاع بقدر الطاقة على ما أراد الله بكلامه.

2 - علم الحديث

2-1- علم معاني الحديث: هو علم يُبحث فيه عن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وموضوعه حديث النبي صلى الله عليه وسلم من حيث الدلالة.

2-2- علم أصول الحديث: هو علم يبحث في أحوال حديث النبي صلى الله عليه وسلم من حيث القوة والضعف بحسب اختلاف أقوال نقلته، وموضوعه أيضاً الحديث لكن من حيث الثبوت.

3 - العلوم المأخوذة من الكتاب والسنة

3-1- علم العقائد (علم التوحيد والصفات): ويسمى العلم المتعلق بالأحكام الاعتقادية، وأشرف مباحثه ومقاصده علم التوحيد، ويعني معرفة مسائل الإيمان ما فرض من الأخلاق والأفعال وما حُرِّم منها.

3-2- علم الأخلاق (علم أحوال القلب): هو علم يبين الأخلاق الفاضلة وكيفية اكتسابها، والأخلاق الرذيلة وكيفية اجتنابها، وموضوعه الملكات النفسانية. وأما علم التصوف فهو أحد فروع علم الأخلاق، وهو يبين أكمل مراتب الأخلاق الفاضلة كأكمل مراتب التوحيد.

3-3- علم الموعظة: هو علم جمع فيه ما هو سبب الانزجار عن المنهيات، والانزعاج إلى المأمورات من الأمور الخطابية المناسبة لطباع عامة الناس.

3-4- علم أصول الفقه: هو العلم بالقواعد الكلية التي يُتوصل بها من أدلة الفقه إليه، وأدلة الفقه أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

3-5- علم الفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، ويُعَدُّ علم الفرائض باباً من أبواب الفقه.

4 - العلم اللدني

هو علم يُحَصَّلُ بغير تعلُّم من أحد، وإنما يُحَصَّلُ باتباع شريعة المصطفى، ويسمى أيضاً علم الباطن، وعلم المكاشفة، وعلم الموهبة، وعلم الأسرار، وعلم المكنون، وعلم الوراثة، وعلم الحقيقة.

بينما تشتمل العلوم غير الشرعية على: العلوم العربية، والعلوم العقلية، وعلم التشريع، وعلم الطب، وعلم الفراسة، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم اللغة الفارسية وكيفية تراكيبها، وتفصيلها على النحو الآتي[27]:

1 - العلوم العربية

1-1- علم اللغة: هو علم الأوضاع الشخصية للمفردات، وهو الذي أظهر الله به فضل آدم عليه السلام على الملائكة، والوضع الشخصي أن تلاحظ اللفظ بشخصه وتضعه لمعنى.

1-2- علم الاشتقاق: هو علم يبحث لا عن هيئات الكلم ولكن عن انتساب بعضها إلى بعض بالأصالة والفرعية.

1-3- علم الخط العربي: هو علم يُبْحَثُ فيه عن كيفية كتابة اللفظ العربي وهو أحد العلوم العربية.

1-4- علم النحو: هو علم يُبْحَثُ فيه عن أحوال الكلم إعراباً وبناءً، وهو شامل لفن التصريف.

1-5- علم العروض: هو علم يُعْرَفُ به أوزان المركبات الموزونة.

1-6- علم القافية: هو علم يُعرفُ به أحوال تناسب أواخر المركبات الموزونة.

1-7- علم البلاغة: هو علم يُعرفُ فيه مطابقة الكلام الفصيح للحال، ففصاحة الكلام شرط البلاغة، والفصاحة تعلم الاطلاع على علوم: اللغة والتصرف والنحو والبيان، وعلم البديع خارج عنه وتابع له.

1-8- علم المحاضرات: هو علم يُحصلُ منه مَلَكَةُ إيراد كلام مناسب للمقام من جهة معناه الأصلي أو جهة تركيبه الخاص، فهو علم جمع فيه ما يطيب بذكره المجلس ويتعجب منه الحاضرون، وأما علم التاريخ فهو تعيين أوقات الحوادث الماضية، وهذا الفن بعض من المحاضرات.

2 - العلوم العقلية

2-1- علم المنطق (الميزان): هو قوانين يُعرَفُ بها صحيح الفكر وفاسده، ويُعصمُ بها الذهن من الخطأ في التفكير.

2-2- علم المناظرة: هو قوانين تميز الأبحاث فيه الموجَّهُ عن غير الموجه، ويسمى أيضاً علم آداب البحث وصناعة التوجيه لأنه يُبحثُ فيه عن أغراضها، ومن ليس له صلة بهذا الفن لا يكاد يفهم أبحاث العلوم.

2-3- علم الكلام: هو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبهات عنها، ويسمى أيضاً بعلم أصول الدين.

2-4- علم الرياضيات: هي الباحثة عن أمور يصح تجردها عن المادة في الذهن فقط، وتنحصر في:

2-4-1- علم الهندسة: هو علم يبحث فيه عن أحوال المقادير، أي الكم المتصل وهو الخط والسطح والجسم التعليمي.

2-4-2- علم الحساب: هو علم بقوانين يستخرج بها المجهولات العددية من معلوماتها، فموضوعه الكم المنفصل وهو العدد.

2-4-3- علم الهيئة: هو علم يُبحثُ فيه عن هيئة الأجرام العلوية والسفلية على ما دلت عليه أرصادهم.

3 - علم التشريح

هو علم يبحث فيه عن أعضاء الإنسان وكيفية تركيبها، وهو من مبادئ علم الطب.

4 - علم الطب

هو علم يُبحث فيه عن أحوال بدن الإنسان من الصحة والمرض، وأما البحث عن الأدوية فراجع إلى البحث عن البدن.

5 - علم الفراسة

هو الاستدلال بالأشكال الظاهرة على الأخلاق الباطنة.

6 – علم تعبير الرؤيا

يقصد به علم تفسير الرؤيا وبيان مدلولها، وقد يكون تحصيله بالمكاشفة وقد يكون بالاجتهاد.

7 – علم اللغة الفارسية

علم لا بد من تعلمه؛ إذ لا يخلو أكثر كتب الفتاوى عن التعبير عن بعض المسائل باللغة الفارسية خصوصاً في باب ألفاظ الردة والطلاق.

وبالنسبة للفنون الضارة فهي تضم[28]:

1 – الفلسفة: تعني محبة الحكمة والفيلسوف أصلها فيلا سوف؛ أي: محبة الحكمة وهي قولية أو فعلية.

2 – السحر: ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان.

3 – علم أحكام النجوم: هو علم يقصد به الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية.

4 – علم الموسيقا: هو علم يُبْحَثُ فيه عن النغمات، وقد وضعه الفلاسفة.

5 – علم الحروف (الجفر): هو علم يُعْرَفُ به رقم حروف الهجاء على كيفية ذكرت في كتاب الجفر، وغايته الاطلاع على المغيبات الآتية.

6 – علم الشعبذة: هو إراءة الشيء في رأي العين بغير ما عليه من حقيقة بسبب خفة حركة يد المباشر.

7 – علم الرمل: كان الواحد من العرب إذا قصد شغلاً يأخذ خشباً ويخط على الرمل على العجلة خطوطاً كثيرة بلا حسابُ ثم يمحو خطين خطين فإن بقي زوج فهو علامة خير، وإن بقي فرد فهو علامة نحس.

8 – الأشعار: وهي المتعلقة بعشق النساء وذكر الفسق والخمر والغلام... إلخ.

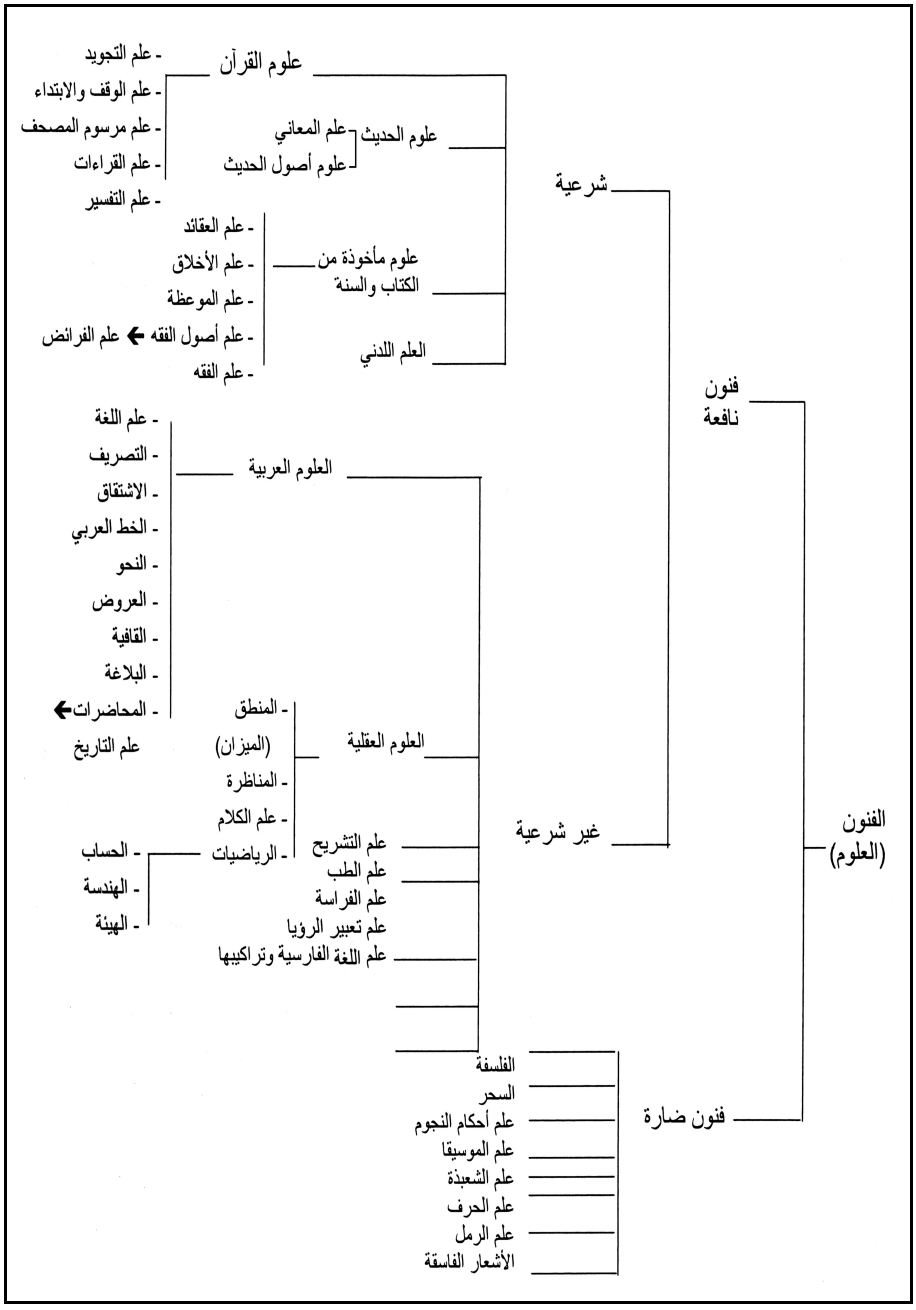

شكل (1)

مخطط هيكلي لتصنيف العلوم عند ساجقلي زاده

ج - تصنيف العلوم وفقاً لأحكام الاشتغال بها

يميز ساجقلي زاده بين العلوم من حيث أحكام الاشتغال بها تمييزاً أصولياً؛ فمنها ما هو فرض عين، وما هو فرض كفاية، وما هو مندوب، وما هو حرام، وما هو مباح. «فأهم العلوم ما هو فرض عين على المكلف قبل كل شيء؛ وهو علم التوحيد والصفات، ثم ما فرض عليه عيناً بعد ذلك في كل وقت كمعرفة فرائض الأخلاق أو محرماتها، ثم ما فرض عليه عيناً في بعض الأوقات كعلم الصلاة والصوم عند بلوغ المرء إلى وقت افتراضها، ثم ما فرض عليه على الكفاية عند عدم وجود القائم به، ثم مستحبات العلوم، ومن مستحبات العلوم تحصيل فروض الكفاية عند وجود القائم بها... فيُفترض هذا الترتيب في تحصيل العلوم، ومن أخطأ الترتيب فقد ظلم. إنه لا يفلح الظالمون»[29].

وأما فرض العين من العلوم «فهو ما كلف الله عبده في الحال الذي هو فيه وما كلفه ثلاثة أنواع: اعتقاد وفعل وترك، فعلم الحال معرفة مسائل الإيمان، وما فرض من الأخلاق والأفعال وما حُرم منها. ويقصد بفرض الكفاية من العلوم كل ما من شأنه القيام بما يحتاج إليه عامة الخلق من جهة المعاش أو المعاد كما عرفت، وفروض الكفاية من العلوم المدونة على ما ذكره في الإحياء [يقصد كتاب إحياء علوم الدين للغزالي] علوم القرآن الصحيحة، وعلم تفسيرها، وعلم تجويدها، وعلم الأحاديث أي الصحيحة قياساً على القراءات؛ لأن في إحاطتها كلها حرجاً عظيماً، وعلم معانيها، وعلم أصول الحديث، وعلم الأخلاق يعني ما عدا التصوف، وعلما الفقه وأصوله، وعلم الكلام»[30].

د - تصنيف العلوم لمن أراد تحصيلها

خصص ساجقلي زاده الفصل الأول من فصلي المقصد الثاني من الرسالة التي بين أيدينا لبيان ترتيب الفنون لمن أراد تحصيلها حسب أولوية اكتسابها وتلقيها، ويعتبر هذا الفصل هو غاية المؤلف من تأليفه لتلك الرسالة، فيوضح في المقدمة ذلك قائلاً: «آل أمر الطلبة إلى أن تركوا بعض الفنون المعتبرة رأساً، ومن بعضها ثلثاً أو نصفاً، والباقي يريدون تناوله أولاً مع الشروح والحواشي،

فلا تفرغ أذهانهم من تخيل الأبحاث المتشعبة والاحتمالات المتشتتة، والأقوال المضطربة لفهم المسائل المشهورة وجمعها في الخزانة، وهذا خلاف ما عليه السلف، فقد قيل في تعليم المتعلم: كان المشايخ يختارون للمبتدئ[31] صغارات المبسوطة؛ لأنه أقرب إلى الفهم والضبط وأبعد من الملالة. . . ينبغي الاشتغال بحاشية بعض الفنون بعد فهم مسائله وإحاطتها، ويغلط بعض الطلبة في ترتيب الفنون والقدر اللائق من السعي لكل فن، فيشرع في بعض الفنون قبل تحصيل ما يتوقف فهمه عليه، وقد لا يهم لفهم فن فيشتد الحاجة إليه ويطيل البحث فيما لا يكثر الاحتياج إليه، وأمثال هذه التدبيرات الردية مداد تنزلهم وعدم وصولهم إلى مقاصدهم، فأردت أن أنبئكم معاشر الطلبة بخير من ذلكم، وأدلكم على تجارة تنجيكم عما يرديكم بإنشاء رسالة سميتها ترتيب العلوم»[32].

وبناء على ذلك يصنف ساجقلي زاده الفنون (العلوم) في هذا الفصل طبقياً حسب أولويات تلقيها وتعلمها على النحو الآتي: فالمبتدئ يُلقن أولاً الإيمان على قدر فهمه فإن كان صبياً يؤمر بعده بتعليم القرآن من معلم صحيح الأداء إلى أن يختمه، ثم يؤمر بتعليم تفاصيل الإيمان وعقائد أهل السنة والقدر المفروض من علم الأخلاق وعلم الصلوة. والمتكفل ببيان هذا الجميع؛ الرسالة التركية لمحمد البركوي؛ ونعمت هي لكل مبتدئ عجمي، ثم يؤمر إن كان عجمياً بتعلم لغة ابن فرشته وحفظها، وإن كان بالغاً يؤمر بعد تلقين الإيمان على قدر فهمه بتعلم الفاتحة وسور قصار، ثم يؤمر بتعلم تلك الرسالة أو ما يفيد مفادها، ثم يؤمر بتعلم جميع القرآن ثم يؤمر بتعلم لغة ابن فرشته وحفظها، ثم يؤمر بتعلم الصرف، ثم النحو، ثم علم الأحكام، ثم المنطق، ثم المناظرة، ثم علم الكلام، ثم المعاني، ثم أصول الفقه، ثم بعد ذلك يؤمر بتعلم أصول الحديث، ثم الحديث رواية ودراية، ثم التفسير، وأما تعلم علم النحو والقراءة ومرسوم المصاحف فيتعلمها الطالب متى قدر قبل تعلم التفسير. وأما الحساب والهندسة والهيئة والعروض فيحصلها متى قدر، لكن ينبغي تقديم تعلم الحساب على تعلم علم الأحكام خصوصاً الفرائض»[33].

وعلى الرغم من أن هذا الفصل هو مراد المؤلف من رسالته فإنه لم يشغل إلا صفحة واحدة من الرسالة فقط، كما أن هذا الترتيب إنما يتبع المنحى

البراجماتي (العملي) الذي يعمد إلى ترتيب الموضوعات في مجموعات تخدم أغراض الاستخدام والإفادة منها.

هـ - تصنيف العلوم وفقاً لمراتبها

يتناول ساجقلي زاده في الفصل الثاني من مقصد الرسالة الثاني[34] العلوم من حيث مراتب كل منها، وهو في ذلك إنما يسير على هدى الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين، حيث يشير إلى أنه ما من علم إلا وله اقتصار بالراء، واقتصاد بالدال، واستقصاء، وقد اكتفى ساجقلي بتوضيح المراتب الثلاث في التفسير، والحديث، والفقه، والكلام، ونظم القرآن، والبلاغة، والمنطق، والنحو.

1 - التفسير

أ - مرتبة الاقتصار: ما يبلغ ضعف القرآن، أي مثله كالوجيز للواحدي.

ب - مرتبة الاقتصاد: ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن، كالوسيط للواحدي.

جـ - مرتبة الاستقصاء: ما وراء الاقتصار والاقتصاد.

2 - الحديث

أ - مرتبة الاقتصار: تحصيل ما في الصحيحين من الأحاديث بتصحيح نسخة على رجل خبير تعلم متن الحديث.

ب - مرتبة الاقتصاد: إضافة الأحاديث المذكورة في المسندات الصحيحة إلى ما في الصحيحين.

جـ - مرتبة الاستقصاء: استيعاب ما وراء ذلك مما نقل من الضعيف والقوي، ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم.

3 - الفقه

أ - مرتبة الاقتصار: ما يحويه مختصر المزني.

ب - مرتبة الاقتصاد: ما يبلغ ثلاثة أمثال مختصر المزني.

جـ - مرتبة الاستقصاء: ما وراء ذلك.

4 – الكلام

أ – مرتبة الاقتصار: معرفة عقائد أهل السنة المنقولة عن السلف مثل الفصل الأول من فوائد العقائد في الإحياء.

ب – مرتبة الاقتصاد: معرفة عقائد أهل السنة مع أدلة نقلية وعقلية مثل الفصل الثالث من فوائد العقائد في الإحياء.

جـ – مرتبة الاستقصاء: تقرير أدلة العقائد وزيادة أسئلة وأجوبة.

5 – نظم القرآن

أ – مرتبة الاقتصار: لم يذكر عنه شيئاً.

ب – مرتبة الاقتصاد: معرفة رواية واحدة متواترة عن الأئمة المشهورين.

جـ – مرتبة الاستقصاء: يضم إلى ما ذكر في الاقتصاد معرفة القراءات الشاذة.

6 – البلاغة

أ – مرتبة الاقتصار: مثل التلخيص.

ب – مرتبة الاقتصاد: مثل الإيضاح.

جـ – مرتبة الاستقصاء: مثل ما تتضمنه الشروح.

7 – المنطق

أ – مرتبة الاقتصار: مثل منطق إيساغوجي مع شرحه للحسام كاني.

ب – مرتبة الاقتصاد: مثل الشمسية مع شرحه للقطب.

جـ – مرتبة الاستقصاء: ما زاد على ما سبق.

8 – النحو

أ – مرتبة الاقتصار: مثل الأنموذج.

ب – مرتبة الاقتصاد: مثل ما تضمنه مغني اللبيب، والكافية.

جـ – مرتبة الاستقصاء: ما زاد على ما سبق.

وفي نهاية الحديث عن مراتب العلوم، يشير ساجقلي زاده إلى إمكانية تحديد تلك المراتب في غير ذلك من العلوم باستخدام القياس حيث يقول: «وبالجملة الاقتصار في كل فن ما تضمنته الفنون المختصرة، وفي الاقتصاد ما تضمنته المتون المتوسطة، وما زاد على ذلك استقصاء. ولا تحد (أي لا تعرَّف) تلك المراتب إلا بالتعريف، أقول ولي إجمال في تحديد هذه المراتب؛ وهو أن إحاطة أشهر مسائل الفن اقتصار، والزيادة عليه بإحاطة مشهوراته أيضاً اقتصاد، والزيادة عليه بإحاطة نوادره أيضاً استقصاء. والله أعلم»[35].

ثالثاً: نتائج التحليل

أ - المدرسة التي ينتمي إليها تصنيف ساجقلي زاده

ينتمي تصنيف ساجقلي زاده إلى مدرسة التصنيف الببليوجرافي التي تجمع بين الجانب الفلسفي في عرض الموضوعات، فتعرف حدود كل علم، والسند الأدبي؛ حيث تعرف بأهم الكتب في كل علم، وهو بذلك حقق ما نادى به بليس Bless في القرن العشرين من ضرورة الربط بين الطريقة المنطقية العلمية والطريقة الببليوجرافية في التصنيف، بحيث يتفق التصنيف مع المنهج التعليمي التربوي السائد في عصره[36]، وهذا ما يتضح من خلال استعراض تصنيف ساجقلي زاده.

ب - الهدف من تصنيف ساجقلي زاده

أوضح ساجقلي زاده في مقدمة رسالته أن غرضه من التأليف هو غرض تعليمي تربوي[37]، وقد اقتضى ذلك من المؤلف ذكر أنواع العلوم وبيان مراتبها، والتعريف بأهم الكتب في كل علم، ومن هنا جاءت رسالته دليلاً مصنفاً للعلوم، تعرِّف بحدود كل علم ومجاله وأهميته، ولكنه لم يقف عند ذلك الغرض من رسالته، وإنما أراد به أن يساعد كل طالب علم على عدة أمور:

- أيُّ العلوم يبدأ بها في الدراسة والتعليم.
- تعرُّف الحدود الموضوعية لكل علم.
- المقايسة بين العلوم للتعرف على تدريجها حسب شرفها.

- التمييز بين العالم والجاهل الذي يدعي العلم، ويساعده على ذلك حصيلته المعرفية.

ب - الفلسفة الكامنة وراء تصنيف ساجقلي زاده

يشير بول هرست Paul Hirst وهو أحد فلاسفة التعليم، إلى أن مضمون العلم العام يهتم بموضوعات المعرفة، وعلاقة الموضوعات بعضها ببعض، ومن ثم فإن علاقة التصنيف الفلسفي بالمتطلبات التعليمية علاقة وثيقة[38].

وتكمن الفلسفة التي يرتكز عليها تصنيف ساجقلي زاده في المقام الأول في محاولة إعطاء مسوغات منطقية للتدرج في تدريس الموضوعات حسب الأولوية في تقديم موضوعات على غيرها، وينبع هذا التدرج من رؤية دينية إسلامية خالصة تعكس طريقة التعليم المتبعة في العصر العثماني لا سيَّما القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، ونظرة العلماء للموضوعات في تلك الحقبة.

ويسير ساجقلي زاده في ترتيب العلوم حسب شرف العلم، ويقدم علماً على آخر باعتباره وسيلة إلى اللاحق، ومن ثم يقدم العلوم النافعة على العلوم الضارة، ويقدم العلوم الشرعية على العلوم غير الشرعية باعتبار الأولى أشرف من الثانية، وفي ترتيب ساجقلي زاده لفروع كل علم يستخدم مبدأ شرف العلم، لذلك يقدم علوم القرآن من تجويد، ووقف وابتداء، ومرسوم المصحف، والقراءة، والتفسير على علوم الحديث. ويقدم علوم الحديث على بقية العلوم الدينية الأخرى. وأما بالنسبة للعلوم غير الشرعية، فيقدم العلوم العربية خلالها على العلوم العقلية وسائر العلوم الأخرى لتمتعها بالأفضلية، حيث إن العلوم العربية وسيلة تعلم بقية العلوم، وهكذا.

د - القواعد والمفاهيم في تصنيف ساجقلي زاده

يعكس تصنيف ساجقلي زاده في مواضع عدة كثيراً من العلاقات بين العلوم، منها:

1 – علاقة التساوي

ونجد لها نماذج متعددة في تصنيفه، ومنها ما ورد في تقسيم العلوم إلى نافعة وضارة، وتقسيم العلوم النافعة إلى: شرعية وغير شرعية، وتقسيم العلوم الشرعية إلى: علوم القرآن، وعلوم الحديث، والعلوم المأخوذة من الكتاب والسنة، والعلم اللدني، وتقسيم العلوم العربية إلى: علم اللغة، وعلم التصريف، وعلم الاشتقاق، وعلم الخط العربي، وعلم النحو، والعروض، وعلم القافية، وعلم البلاغة، وعلم المحاضرات.

2 – علاقة الاشتمال والتبعية

ويطلق عليها أيضاً مصطلح التفريع الذي يعني أن نُدرج الموضوعات الأصغر في الموضوعات الأكبر بقدر واحد من المنطقية والتسلسل الموجود في الروابط بين الموضوعات الأكبر[39]، وهذا ما اتبعه ساجقلي زاده في عرض العلوم في تصنيفه، فصارت متدرجة من العلم الكلي إلى العلم الجزئي، فقد قسم على سبيل المثال العلوم غير الشرعية إلى: العلوم العربية، والعلوم العقلية، وعلم التشريح، وعلم الطب، وعلم الفراسة، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم اللغة الفارسية وتراكيبها. ثم يُقسم العلوم العقلية إلى: المنطق، وعلم المناظرة، وعلم الكلام، وعلم الرياضيات، ثم يقسم الرياضيات إلى: الحساب، والهندسة، والهيئة.

3 – علاقة الترابط والتجاور

وتعني جمع المجموعات المتجانسة معاً، حيث توجد بينها علاقات قوية[40]، فقد عمد ساجقلي زاده إلى تجاور علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلوم الكتاب والسنة، والعلم اللدني، وهي جميعاً تعالج العلوم الشرعية، كما حرص على تجاور علوم المنطق، والمناظرة، وعلم الكلام، والرياضيات لكونها علوماً عقلية. وحرص أيضاً على الترابط بين علوم: الفلسفة، والسحر، وعلم أحكام النجوم، وعلم الموسيقا، وعلم الشعبذة، وعلم الحرف، وعلم الرمل، والأشعار الفاسقة لكونها علوماً تضر ولا تنفع.

هـ - مستوى المعالجة في تصنيف ساجقلي زاده

يعرض ساجقلي زاده تصنيفه في قسمين رئيسين، وكل قسم منها يتداعى إلى الفروع التي يتجزأ إليها، ويعرض الجدول الآتي موضوعات العلوم في خطة ساجقلي زاده التصنيفية موضحاً الأقسام الرئيسة والفرعية، وإلى أي صف يقف التفريع في تصنيفه.

جدول (1)

توزيع الأقسام الرئيسة والفرعية في تصنيف ساجقلي زاده

تصنيف ساجقلي زاده	المستوى الأول	المستوى الثاني	المستوى الثالث	المستوى الرابع	المستوى الخامس	الإجمالي
رسالة ترتيب العلوم	علوم نافعة	2	11	25	5	44
	علوم ضارة	8	–	–	–	9
الإجمالي	2	10	11	25	5	53

بلغ عدد الأقسام الرئيسة (المستوى الأول) قسمين فقط، يندرج فيها في المستوى الثاني: عشرة علوم، وعند هذا الحد يقف تفريع العلوم الضارة. أما العلوم النافعة فيتتابع انقسامها إلى المستوى الثالث حيث بلغ عددها في هذا المستوى أحد عشر قسماً. ثم تنقسم ليصل عددها خمسة وعشرين قسماً في المستوى الرابع، وأخيراً اقتصر المستوى الخامس على فروع الرياضيات الثلاثة وهي: علم الحساب، وعلم الهندسة، وعلم الهيئة، وعلم التواريخ (التاريخ) المتفرع من علم المحاضرات، وعلم الفرائض المتفرع من علم أصول الفقه.

و - تماسك تصنيف ساجقلي زاده

يتميز تصنيف ساجقلي زاده من الناحية الموضوعية بالاتساق والتماسك بين أقسامه. فيندرج في عرض علومه لخدمة هدف وحقيقة نابعين من الفكر الإسلامي، وتلك الحقيقة الدينية هي ما يصل به الإنسان إلى السعادة الأبدية، ولذلك بدأ بالعلوم الشرعية لا سيَّما علوم القرآن والحديث وتلك المأخوذة من

الكتاب والسنة والعلم اللدني، ثم العلوم العربية التي تساعد في الوصول إلى العلوم العقلية التي تحمي العقل من الخطأ. إلا أن ثمة اضطراباً يسود ترتيبه لباقي العلوم غير الشرعية فيذكر علم التشريح مستقلاً عن علم الطب مع أنه يذكر في المقدمة أن التشريح أحد فروع علم الطب، ثم يذكر علم الفراسة، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم تعلم الفارسية. وعلى الرغم من أن علم الفراسة يمكن أن يعد أحد العلوم العقلية غير أن علمي تعبير الرؤيا، وعلم تعلم الفارسية، لم يدرجا في المكان المناسب، وربما الأجدر بعلم الرؤيا أن يضاف إلى العلوم الشرعية، ويدرج علم تعلم الفارسية إلى جوار علوم اللغة العربية.

ز - تأثير البيئة الثقافية على تصنيف ساجقلي زاده

وقد جاء تصنيف ساجقلي زاده؛ ليكون بمثابة مرآة تعكس نشأته العلمية والدينية، وما لاقته العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية من اهتمام، حيث إن هذه العلوم هي التي سادت الدولة العثمانية بصفة عامة، حتى إن بعض السلاطين اتجه إلى التصوف. ليس هذا فحسب، بل إنهم شجعوا التصوف والحركات الصوفية، وهو أمر كان له تأثيره على فكر العلماء الذين عملوا على خدمة هدف واحد هو الحقيقة الدينية ورفع شعار الإسلام. أما عن الجانب العلمي فقد اتخذت الدولة العثمانية من الدين ستاراً لكل توسعاتها، وقد ازدهرت الحركة العلمية في استانبول ازدهاراً كبيراً[41].

ونظراً لأن تصنيف ساجقلي زاده من التصنيفات المتأخرة في عمر الحضارة العربية الإسلامية، نجد فيه إجمالاً لما توصل إليه الفكر العربي المسلم.

ح - تأثر تصنيف ساجقلي زاده بالسابقين

يعكس تقسيم ساجقلي زاده للعلوم تأثره بعددٍ من تصنيفات علماء المسلمين الأوائل التي تفيض بالحديث عن العلم وشرفه وفضله وقيمته، وتصنيف العلوم حسب درجة القيمة التي يكتسبها كل علم من العلوم إلى أن نصل إلى أشرفها، وهو العلم الذي يعد قمة التصنيف وهو عادة «العلم الإلهي»[42].

ولعل من أهم التصانيف التي تأثر بها ساجقلي زاده في تقسيمه للعلوم على أساس ثنائي وهي العلوم المحمودة «أفضل العلوم»، والمذمومة التي تأتي في أدنى التصنيف تصنيف التهانوي[43] في مقدمة كشاف اصطلاحات الفنون، حيث انطوت المقدمة على فصل في بيان العلوم المحمودة والمذمومة. ويتضح من ذلك الفصل أن للعلوم أساساً معيارياً يحكم من خلاله عليها بالحمد والذم، فهي إذاً ذات قيمة وهو هنا يقيمها من منظور إسلامي؛ فهي نوعان: محمودة ومذمومة، والمحمودة بعضها فرض عين وبعضها فرض كفاية، وبالنسبة لعلم السحر والنيرنجات والطلسمات وعلم النجوم وغيرها فهي العلوم غير المحمودة، وأما علم النفس والهندسة فبعيدة عن الآخرة[44]، ولعل هذا التأثير إنما يأتي من قبيل معاصرة ساجقلي زاده للتهانوي، فكلاهما من علماء القرن الثاني عشر الهجري، ولا ندري أجاء هذا التأثير مصادفة أم أنه نتاج اتصال علمي بينهما.

كما يبرز تقسيم ساجقلي زاده للعلوم تأثره الواضح بتصنيف ابن تومرت[45] في كتابه **كنز العلوم والدر المنظور في حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة**[46]، وفيه يذكر أن جميع العلوم النافعة متدرجة تحت علم الشريعة وعلم الطبيعة، ويؤكد أن مقصود الحكمة هو «حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة»، وفائدة ذلك تمييز الخالق من الخلائق، وتنزيه الله تعالى عمن سواه فذلك هو حقيقة العلم وغايته الأسمى[47].

ويلاحظ وجود تشابه كبير يصل إلى حد التطابق بين فلسفة كل من ساجقلي زاده والإمام الغزالي[48] لا سيَّما في كتابه إحياء علوم الدين للإطار العام الذي ينتظم المعرفة البشرية؛ حيث يربط كل منهما بين الأساس الأكسيولوجي القيمي والأساس الديني الأصولي، فكلاهما يوضح أن العلم مطلوب في ذاته، ومطية إلى دار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم النافع (الشرعي والآلي)، وإن كان الشرعي أعلى مرتبة وأنفس قيمة، ويرجع الاختلاف الوحيد بين تصنيف ساجقلي زاده وتصنيف الغزالي في أولويات التقسيم، فيلاحظ أن ساجقلي زاده يقدم تقسيم الفنون (العلوم) إلى نافعة وضارة قبل تقسيمها إلى شرعية وغير شرعية.

كما يلاحظ على تصنيف العلوم وفقاً لمراتبها عند ساجقلي زاده اتفاقه مع الإمام الغزالي أيضاً في تصنيفه للعلوم في كتاب إحياء علوم الدين، ولم يكتف ساجقلي زاده بتوضيح تلك المراتب الثلاث في كل من فنون التفسير، والحديث، والفقه، وهي التي اقتصر الغزالي على تناولها وإنما زاد عليها ما يتعلق بالكلام، ونظم القرآن، والبلاغة، والمنطق، والنحو.

كما يمكن أن نجد في هذا التصنيف لبنة لما يمكن أن نطلق عليه بلغة اليوم خطط التصنيف التحليلية التركيبة، وإنما يتضح فيه الرؤية الأساسية التي تسود هذه الخطط، من حيث كونها لا تحصر جميع موضوعات المعرفة البشرية في جداول التصنيف، ولكن تسجل فقط العناصر التي تتكون منها الموضوعات في قوائم مستقلة، وبعبارة أخرى يقدم ساجقلي زاده مراتب الاقتصار، والاقتصاد، والاستقصاء في بعض العلوم، لا سيَّما العلوم الشرعية، ثم يشرح الأساس الذي يستند إليه في تقسيم أي علم إلى مراتب ثلاث بحيث يمكن الوقوف على كل مرتبة من المراتب الثلاث في أي علم من العلوم باستخدام القياس العقلي.

خاتمة

لقد انطوت رسالة العلوم لساجقلي زاده على لمحات من التصنيف الذي عكس جملة ما توصل إليه الفكر العربي الإسلامي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وقدم ساجقلي زاده أربع تصنيفات للمعرفة البشرية يستند كل منها إلى أساس مختلف. توصل الباحث إلى الإطار العام الذي ينظم العلاقات بين العلوم عند ساجقلي زاده من خلال تحليل محتوى رسالة ترتيب العلوم واستنباط الأفكار، وإلى جانب هذه الرؤية العامة، ذكر ساجقلي زاده ثلاثة تصانيف أخرى؛ حيث بيَّن الأول منها تقسيم العلوم حسب أحكام الاشتغال بها. وعمد الثاني إلى تقديم خطة ودليل يسترشد به طلاب العلوم، فقسم العلوم حسب أولويات تلقيها. وفي الثالث صنف ساجقلي زاده العلوم حسب مراتبها، ذاكراً الأعمال التي تساعد في تحصيل كل مرتبة من المراتب داخل كل علم على حدة لا سيَّما العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية.

الهوامش والمراجع

(1) سالم، ناهد محمد بسيوني: **تصنيف المعرفة عند المسلمين فيما بين القرنين الثاني والثاني عشر الهجريين: دراسة تحليلية لنظمه ومدى تأثيرها في نظم التصنيف الحديثة**. إشراف: شعبان عبدالعزيز خليفة، ماهر عبدالقادر محمد، الإسكندرية: ن. سالم، 1988، ص545. أطروحة (دكتوراه) – جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، قسم المكتبات والمعلومات.

(2) البغدادي، إسماعيل باشا: **هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**. بيروت: مكتبة المثنى، 1955، مج2، ص322–323.

(3) هدية العارفين، ص322–323.

(4) كحالة، عمر رضا: **معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1997، مج 12، ص14.

(5) للتعرف على مزيد من المعلومات عن بعض هذه المخطوطات، انظر موقع الدكتور يوسف زيدان للتراث المتاح على العنوان الآتي: http://www.ziedan.com/index/search.asp.

(6) سوف نتناول هذه الرسالة بالتفصيل في السطور الآتية.

(7) يوجد منه ثلاث نسخ محفوظة في كل من: مكتبة رفاعة الطهطاوي (طهطا، سوهاج، مصر) برقم 158/ أدب، ومكتبة بلدية شبين الكوم (المنوفية، مصر) برقم 70/ ط، ومكتبة المعهد الديني بسموحة (الإسكندرية، مصر) برقم 1554/ آداب بحث.

(8) يوجد منه نسخة محفوظة بمكتبة مخطوطات البحيرة (دمنهور، البحيرة، مصر) برقم 5710.

(9) يوجد منه نسخة محفوظة بدار الكتب بطنطا (الغربية، مصر) برقم 65.

(10) يوجد منه نسخة محفوظة بمكتبة بلدية الإسكندرية (الإسكندرية، مصر) برقم 5057/ د علم الكلام.

(11) يوجد منه ست نسخ محفوظة في كل من: مكتبة المعهد الديني بسموحة (الإسكندرية، مصر) نسختان رقم حفظهما 1029/ آداب بحث، و1030/ آداب بحث، ودار الكتب بطنطا (الغربية، مصر) نسختان رقم حفظهما 30، 135، ومكتبة بلدية شبين الكوم (المنوفية، مصر) نسخة واحدة رقم حفظها 125/ ط، ومكتبة بلدية الإسكندرية (الإسكندرية، مصر) نسخة واحدة رقم حفظها 5279/ د عقائد.

(12) انظر تحويل التواريخ في موقع الوراق على العنوان الآتي: http://www.alwaraq.com.

(13) ورد في الصحاح أن الرسوم جمع رسم، والرسم الأثر، ورسم الدار ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض، ويستخدم مؤلف الرسالة ذلك؛ ليشير إلى أن ما يبقى من الدين الأمثل أثر الدار.

(14) خَلف بفتح الخاء وتخفيف اللام، والأسود مفعوله والأرانب فاعله.

(15) الاختتام مكتوب على شكل حرد متن.

(16) قوله النافعة: يحتمل النفع من جهة الدين أو من جهة الدنيا أيضاً.

(17) يشغل هذا الفصل 38 صفحة من إجمالي عدد صفحات الرسالة البالغ 82 صفحة.

(18) الشامي، أحمد محمد، وحسب الله، سيد: **المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات والمعلومات**. ط1، الرياض: دار المريخ للنشر، 1988، ص249.

(19) المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات والمعلومات، ص250.

(20) مخطوط المكتبة المركزية لجامعة القاهرة رقم 22576.

(21) ساجقلي زاده: **ترتيب العلوم**، مخطوط المكتبة المركزية لجامعة القاهرة رقم 22576، ص3.

(22) ترتيب العلوم، ص2.

(23) ترتيب العلوم، ص3.

(24) يقصد الأنواع الثلاثة للعلوم غير الشرعية الثلاثة.

(25) ساجقلي زاده: **ترتيب العلوم**، ص3.

(26) ترتيب العلوم، المقصد الأول، الفصل الأول، ص18-54.

(27) ترتيب العلوم، الصفحات نفسها.

(28) ترتيب العلوم، المقدمة، ص8-17.

(29) ترتيب العلوم، ص5.

(30) ترتيب العلوم ص ص 11، 12.

(31) المبتدئ هو من أخذ في مبادئ العلم، والمنتهي هو من حصَّل من العلم ما يهتدي به إلى باقيه، والمتوسط من حصَّل المبادئ ولم يبلغ درجة الثاني (مؤلف الرسالة).

(32) ترتيب العلوم، ص1، 2.

(33) ترتيب العلوم، ص63.

(34) ترتيب العلوم، ص 64-68.

(35) ترتيب العلوم، ص67.

(36) أبو النور، عبدالوهاب: **نظم التصنيف في الوطن العربي**، ط1، القاهرة: عالم الكتب، 1966، ص51.

(37) تجدر الإشارة إلى أن هذا الغرض كان الدافع وراء عدد من الأعمال السابقة على رسالة ترتيب العلوم، نذكر منها:
- إحصاء العلوم للفارابي (ت 339هـ).
- إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد لابن الأكفاني (ت 749هـ).
- إتمام الدراية لقراء النقاية لجلال الدين السيوطي (ت 911هـ).
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاشكبري زاده (ت 968هـ).
- الفوائد الخاقانية للشرواني (ت 1036هـ).

(38) Hirst, Paul. Knowledge and the Curriculum. London: Rootledge, 1974, P.6.

(39) خليفة، شعبان عبدالعزيز، والعايدي، محمد عوض: **التصنيف العشري القياسي للمكتبات المدرسية والعامة**، ط1، القاهرة: المكتبة الأكاديمية، 1996، ص93.

(40) التصنيف العشري القياسي، ص93.

(41) هريدي، محمد عبداللطيف: **الأدب التركي الإسلامي**، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1407هـ/ 1987م، ص74-79.

(42) عطية، أحمد عبدالحليم: **دراسات في تاريخ العلوم عند العرب**، ط1، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1991، ص103.

(43) هو محمد بن علي بن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي التهانوي، نسبة إلى تهانة موطنه في الهند، أما الفاروقي نسبة إلى الفاروق عمر بن الخطاب، وإليه رضي الله عنه تنسب دويلة الفاروقين في حتديش. ونشأ التهانوي من بيت علم، فرغ من تأليف كشاف اصطلاحات الفنون سنة 1158هـ/ 1745م، توفي بعد هذا التاريخ.

(44) دراسات في تاريخ العلوم، ص147.

(45) هو محمد بن محمد بن أحمد بن تومرت السوسي أبو عبدالله الأندلسي المعروف بالمهدي، ولد سنة 485هـ وتوفي سنة 543هـ.

(46) يوجد من مخطوط ابن تومرت (كنز العلوم والدر المنظوم في حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة) حوالي عشر نسخ مختلفة بدار الكتب المصرية.

(47) ابن تومرت، محمد: كنز العلوم والدر المنظوم في حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة. (مخطوط). ص2.
نقلاً عن: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص170.

(48) قدم حجة الإسلام الإمام الغزالي تصنيفات متعددة للعلوم، تغيرت من كتاب لآخر مع تطور كتاباته واختلاف غاياتها، فنصادف له تصنيفات مختلفة في كل من: إحياء علوم الدين، والرسالة اللدنية، ومقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، والمنقذ من الضلال.

* * *